على هامش معالم التقريب *

نداء الفطرة ومعالم المسئولية

نداء الفطرة النابع من أعماق الآدمى فى اتجاهه إلى الله .. هذ
النداء ليس وهماً كما يزعم المنكرون.. فالتلقين والإيحاء الممتدان
لأجيال - لم ينقطعا فى التاريخين القديم والحديث عن غرس
المعتقدات السياسية والاجتماعية فى النفوس.. ومع ذلك بقيت هذ
المغروسات على اختلاف أنواعها وأشكالها على السطح .. لم تنفذ
قط إلى أغوار الإنسان .. وهى إذ تجرف أحياناً كثيرة التفات الناس
وتبعدهم عن الدين، حتى ليتوهم أصحاب هذه النزعات والمعتقدات
أنها قد اقتلعت جذور الدين، إذ بهم يفاجئون أو يفيقون على
الواقع فيكتشفون أنهم لم يكسبوا من الدين إلا معارك وقتية .
ويرون أن أغوار الآدمى وأعماقه لاتزال لله، وليست للمذاهب
الوضعية من شيوعية أو اشتراكية أو ديمقراطية أو أى مذهب آخر من
المذاهب السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية!

ماذا يعنى هذا؟

يعنى أن الفطرة ليست وهماً وليست هشيماً يمكن أن تذروه
الرياح مهما اشتدت.

والإسلام دين الفطرة .. ينزل الفطرة منزلة واضحة فى بنيانه
وثبات الفطرة شىء أساسى فى الإسلام .. فهى غير قابلة للتغيير
ومن هذه الفطرة - لا من الوالدين - يتلقى الإنسان روحه مباشر

---

* المال ٢٠١١/٥/١٨

من فاطره .. يتلقاها نظيفة بيضاء، عليه أن يحافظ على نظافتها وبياضها .. فهى لن تتلوث - إن تلوثت - إلا من نواياه وأعماله السيئة .. وحين ندرك هذه المعانى يبرز أمامنا قول الحق جل شأنه فى كتابه المجيد: "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً" (الإسراء ١٣-١٥).

وفى اعتبار الإسلام أن المعصية إرادية .. لا تقع إلاَّ من مكلف قاصد عامد .. فجوهرها أنها خطيئة إرادة قاصدة واختيار مميز من إنسان معين، وأنه كان فى وسع هذا الإنسان أن يتحنبها لو أراد ولكنه لم يفعل!

وليس فى الإسلام مسئولية عن فعل الغير، ولا عن خطأ الغير أو خطيئته .. طائر كل إنسان فى عنقه .. ولذلك فلا توارث فى المعاصى لأنه لا توارث فى الأرواح .. وليس فى الإسلام خطيئة أصلية يولد بها الإنسان حاملا وزرها عن سواه .. وآدم فى الإسلام موضع تكريم، ارتكب ذنبا هو وزوجه ثم ندما وتابا وتاب الله عليهما بنص الكتاب المجيد :

" وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا

جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة ٣٥-٣٨).

فلم تتغير فطرة الإنسان بهذا الذنب المغفور، ولا يناقض ذلك أو التوالد تصاحبه الشهوة الجنسية، فذلك جزء من الفطرة طاهر بطهارتها فى نظر الإسلام . ومع ذلك فقد يتسيد الجسد على روح الإنسان بفعل الشهوات، وقد يغلب حبه لنفسه على حبه لله ..

وهذا فيما يرى محمد عبد الله محمد - جزء من المحنة أو المعركة التى يجب أن تخوضها روح الإنسان فى حياتها على الأرض، وأن تفوز فيها برضا الله عنها ورضاها عن الله .. فيقول القرآن " أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" (العنكبوت٢-٧)

وهذه الفطرة لا تستلزم أن يكون اختيار الإنسان وحريته مطلقين، أو غير مرهونين أو مشروطين بظروفه وبيئته ومحيطه، ومقدار معرفته للحق، ومبلغ ميله للحق وقبوله إياه عن رضا . فالمطلوب هو بذل الطاقة والجهد .. وإلى ذلك تعدد التنبيه فى القرآن الحكيم .. من مثل :

" لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
تَسَبَتْ ... " (البقرة ٢٨٦).. "وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ
كَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"
لأعراف ٤٢) .. "وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ
لْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (المؤمنون ٦٢) ..

أما ما قد يكون بالنفس من نقص أو عاهة أو عجز ـ فمتروك
طف الله ونعمته ورحمته عز وجل.

وتلك المحنة أو المعركة التى يخوضها الإنسان فى حياته على
رض ـ ليست معركة مع الفطرة الإنسانية، وإنما هى معركة مع
شيطان .. هذه المعركة التى سبق أن انهزم فيها آدم ولكن هزيمة
ضية ثم نهض بعدها وندم وتاب عنها وعرف وجهته الصحيحة
كذلك يفعل أبناؤه وأبناء أبنائه إلى يوم الدين.